المقاصد في الطاعات والقربات
بين الأغراض الشرعية والدوافع المنافية لها

د . محمد بن يونس السويسي
الأستاذ في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المقدمة : تباين الأغراض في القربات والطاعات

يلاحظ المتتبع للنصوص الشرعية المتعلقة بالمقاصد أنها طرقت عددا من القضايا الجوهرية المرتبطة بمصير أعمال الإنسان ، ونوع مستقرها ومستودعها ، وعالجت البواعث الحافزة على تلك الأعمال والموجهة لها إلى هذا الغرض أو ذاك في نطاق يكشف عن طبيعتها ويبين طيبها من خبيثها ، وسمينها من غثها – من ناحية – ويمدح الحسن منها ، ويطلب الإكثار منه أو يذم القبيح ويدعو إلى نبذه من جهة أخرى .

وتلك القضايا الجوهرية من الممكن حصرها في تحديد الهدف من العمل ، فإما أن يكون متجها للخالق المتميز بالعبادة ، وإما أن يكون لغيره ، ثم ما قد يطرأ على أحد الهدفين من منازع أخرى ، قد تضعف الإرادة المطلوبة ، أو تساويها ، أو تتغلب عليها ، وذلك لأن جميع الطاعات أو القربات التي يفعلها الإنسان المسلم يحتمل أن تكون مرادة لله تعالى ويحتمل أن تكون غير مرادة له ، أو تكون مزجا بين المقصدين ثم إن هذا المزج سوف يترتب عليه حتما تفوق أحد العوامل ، وتضاءل غيره تبعا لمطامح صاحبه .

فالذي يقوم ببناء مؤسسة علمية من ماله الخاص لابد أن يكون الدافع له على ذلك البذل والعمل المفيد أمر واحد أو أكثر من ذلك ، فحينا تكون نيته التقرب إلى ربه ، والسعي إلى نشر المعرفة الصحيحة، والعلوم النافعة التي تكون مدعاة إلى تقدم الأمة ، ورقيها وازدهارها ، وأخذها بأسباب وسائل القوة والمناعة وبناء الحضارة الصحيحة .

فهذا العمل الصادق الجليل سينال إعجاب الناس، وحبهم وتقديرهم لفاعله وسيجلب له شكرهم وثناءهم ، ولكن هل إن هذا سيؤثر في نقصان درجة الثواب ؟

وطورا يكون مراد الإنسان من تشييده للمؤسسة التفاخر ولفت الأنظار إليه حتى يشار إليه بالبنان ، أو إرضاء أولي الأمر ليتوصل بذلك إلى إيجاد حظوة لديهم ، فيجازى من ذلك بنيل منصب حكومي، أو تحقيق مغنم ديني، فهل أن هذا الجزاء العاجل هو كل ما يستحقه صاحبه ولا أمل له في الثواب بعد ذلك ؟

وفي بعض الأوقات يكون المحرك لبناء المؤسسة أكثر من عامل، كالرغبة في طلب إرضاء المولى عز وجل ، ورجاء الأجر العاجل ، ثم الحرص على اكتساب الشهرة أو المجد أوما شاكل ذلك من أغراض الحياة الدنيا .

وقد وردت عدة أحاديث في هذا الغرض تكشف منازع الناس وأهواءهم النفسية ، وغاياتهم المختلفة حول العمل الواحد ، مثل الحديث الصحيح : إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ مانوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر

إليه[1].

ومن ذلك ماروواه معاد بن جبل[2] رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الغزو غزوان فإما من ابتغى وجه الله ، وأطاع الإمام ، وأنفق الكريمة وياسر الشريك ، واجتنب الفساد ، فإن نومه ونبهه أجر كله .

وأما من غزا فخرا ورياء وسمعة ، وعصى الإمام ، وأفسد في الأرض فإنه لم يرجع بالكفاف[3].

ومما يلفت النظر أن جل الأحاديث المتناولة لهذه المقاصد جاءت في موضوعين هامين : الهجرة والجهاد الذين كان لهما أعمق الأثر في نشر الإسلام ونصرته في مبدئه وإرساء أركان دولته .

فالهجرة حصلت في الإسلام على نوعين :

أ - فرار المسلم بدينه من مواطن الخوف إلى حيث يظفر بالأمن والطمأنينة وهذا مثل الهجرة إلى الحبشة ، وابتداء هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة في أول الأمر .

ب - فرار المسلم بدينه من دار الكفر إلى موطن الإسلام ،

1- أخرجه مسلم في كتاب الإمارة 48.6

2- معاذ بن جبل بن عمر والأنصاري (20 ق هـ / 603 - 639/18) كان من الصحابة العارفين بالدين والفقه ، وهو أحد الصحابة الستة الذين جمعوا القران على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعثه الرسول قاضيا ومرشدا لأهل اليمين - أسد الغابة : 5 - 194 - 197 .

3 - أخرجه أبو داود في كتابه الجهاد باب من غزا يلتمس الدنيا 13:2 وأخرجه أحمد بن حنبل في المسند 2 : 290 ، 366 .

والهجرة من مكة إلى المدينة لما بدأ ساعد الإسلام يشتد وأخذت ملامح دولته في البروز والظهور واستمرت كذلك إلى أن تم فتح مكة.

ويشهد لهذا حديث صفوان بن أمية رضي الله عنه[1] قلت يارسول الله إنهم يقولون إن الجنة لا يدخلها إلا مهاجر . قال : لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، فإذا استنفرتم فانفروا[2] فهذا النوع من الهجرة هو المقصود في الأحاديث - على مايبدو - لما يترتب عليها من وفرة عدد المسلمين ، وتزايد قوتهم ، وتماسك صفوفهم ، فإذا لم تكن الهجرة خالصة ولم تضم رجالا من ذوي اليأس الشديد والعزائم الصادقة يذودون عن الإسلام بكل صرامة وعنف فما الفائدة منها ؟

ولذلك وقع التنبيه إلى بيان الهجرة الرابحة ، والهجرة الخسيسة الفاشلة ليعرف كل مريد للهجرة ماسيحصل عليه من الجزاء .

أما الجهاد فقد كان أداة الإسلام الوحيدة لردع الكافرين ، وكسر شوكتهم وبث الرعب في قلوبهم ، وسد طرق الشر أمام مطامعهم في النيل منه والكيد له، وذلك بالانتصارات الباهرة التي مكنت للنور أن ينتشر ويبدد غياهب الظلمات ، وللحق أن يعلو، ويهزم جحافل الباطل، وللانسانية أن تدخل في عهد يسوده العدل الصحيح، والمثل العليا السامية ، وما كان هذا ليتحقق لولا صدق المجاهدين في حب دينهم وإخلاصهم لمبادئه وتعلقهم باهداب تعاليمهم ، وهو

---

1 - صفوان بن أمية بن خلف بن وهب: 661/41
أسد الغابة 3: 23 - 23 .

2 - أخرجه مسلم في كتاب الإمارة 6 : 28 .

مايدفعهم إلى الإستعانة في الدفاع عن العقيدة ومواجهة كل المصاعب والمتاعب .

ومما يجب التذكير به - هنا - أن الإسلام لم يشرع الجهاد إلا بعد أن استنفذ الرسول صلى الله عليه وسلم كل حيلة في الوصول إلى إقناع المشركين بضرورة المصالحة ورد ظلمهم وجورهم وتطاولهم على المسلمين ، وهذا ماجاء في قول الله تعالى : " أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوامن ديارهم بغير حق [1] .

وإذا كانت دوافع الجهاد متعلقة بأغراض دنيوية محضة فإنها لاتبعث على الاستبسال والاستشهاد لأن الذي يقصد الجهاد بتلك النية لا يمكن لأقدامه أن تثبت عند الشدائد فكلما لاحت له الأخطار ولى الأدبار ولا سيما أن اشتغاله بالتفكير في البحث عن الغنائم يضيع عليه الانتصار .

ولعل الرغبة في الغنيمة تذكرنا بهزيمة المسلمين في غزوة أحد حينما عصى الرماة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وتركوا مواقعهم في الجبل [2] استجابة لدواعي النفس وأطماعها في أخذ قسط من أموال المشركين وإسلابهم مع التاكيد الجازم من صدق عزائمهم ، وطيبة ، مقاصدهم ، ولكنهم ظنوا - خطأ - أن النصر قد تم للمسلمين وإن الأوامر قد انتهت بذلك ، فنزلوا يجمعون الغنائم

---

1 - الحج : 39 - 40 .

2 - ابن هشام السيرة النبوية الجزء 3 : 10 .

وإذا بالحرب تدور عليهم فتحول نصرهم إلى هزيمة [1] ثم ما عقب ذلك من نتائج وخيمة لم ينجوا منها حتى الرسول صلى الله عليه وسلم إذ شج رأسه وكسرت رباعيته ، وسال الدم في وجهه الكريم،[2] ، ولهذه الاعتبارات كلها وغيرها وقع التمثيل بالجهاد ليكون المحارب على بينة من الأمر الذي يقصده ، والهدف النبيل الذي يجب أن تنطوي عليه نفسه ويحالفه فيه النصر .

وخطة القول فهذه لمحة خاطفة مجملة تبرز اختلاف نوايا الناس حول العمل الواحد ، وغاياتهم المتضاربة بشأنه التي منها ما هو مطلوب شرعا ، ومنها ماهو مباح ، ومنها المنهى عنه ، ويمكن حصر بحث هذا الموضوع في فصيلة : الإخلاص والرياء .

أ - الإخلاص

في هذا الفعل سيقع الحديث عن حقيقة الإخلاص ومنزلته في التشريع الإسلامي ودعامته التي يتركز عليها ، ثم الآثار الإيجابية المترتبة عليه .

1 - حقيقة الإخلاص ومنزلته في التشريع الإسلامي

جاء في تعريف الجوهري [3] للإخلاص قوله : الإخلاص مأخوذ من خلص الشيء يخلص خلوصا ، أي صار خالصا .

---

1 - ابن هشام السيرة النبوية الجزء 3 : 24 - 25

2 - ابن هشام السيرة النبوية الجزء 3 : 26 - 28

3 - إسماعيل بن حماد الجوهري ت 393- 1003النجوم الزاهرة4: 207 - 208

ويقال : خلاصة السمن وهو ما خلص منه ، وخالصة في العشرة ، أي صافاه و الإخلاص في الطاعة : ترك الرياء [1] .

يستفاد من المدلول اللغوي المقدم أن كل شيئ احتمل ممازجة ولكنه بقي على صفاء أصله ومورده يسمى خالصا ، وهذا المعنى ينصرف تماما إلى الإخلاص بمفهومه الشرعي الذي عرفه الغزالي بأنه : تخليص العمل من كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ، ويميل إليه القلب قل أو كثر ، حتى يتجرد فيه قصد التقرب إلى الله تعالى ولا يكون الباعث عليه غير ذلك [2] .

ومعلوم أنه إذا كان الباعث على العمل واحدا فإن صاحبه يوصف بالمخلص بصرف النظر عن كونه خيرا أو شرا ، فمن تصدق وغرضه الرياء فهو مخلص ، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الخالق جل شأنه فهو مخلص ، ولكن العادة جرت بتخصيص اسم الإخلاص في قصد التقرب إلى الله تعالى من جميع الشوائب [3] .

فالإخلاص بهذا المعنى هو المقصد الشرعي المطلوب من كل مكلف وهو الذي تضمنته الآية الكريمة : " قل إن صلاتي و نسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين" [4]

والإخلاص هو مفتاح الإيمان الذي يتوقف على كلمة التوحيد

---

1 - الصحاح 3 : 1037 .

2 - الإحياء 14 : 2714 .

3 - المصدر السابق : 2713 .

4 - الإنعام : 162 - 163 .

الشتهرة بين المسلمين بكلمة الإخلاص والمتمثلة في النطق بشهادة " لا إله إلا الله " التي مفادها حصر العبودية الحقيقية له وحده ، ونفي وصف الألوهية عما سواه ، والإقرار الصادق بما هو جدير به من أوصاف الكمال وتنزيهه عن كل النقائص والشوائب .

فإذا رسخ هذا الإعتقاد في العقل ، وامتلأ القلب بالشهامة ، وركنت إليه النفس ونشطت الجوارح للعمل به ، تمحص عمل الإنسان لله ، وتوجهت إرادته نحو الخير وصار مقربا بأن يكون من صف الذين يسعدون بشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في يوم القيامة، كما جاء ذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي سأله : من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد ظننت يا أبا هريرة ألا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث؟.

أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : " لا إله إلا الله خالصا من قلبه أو من نفسه " (1) .

فالإخلاص إذن منهج للعمل الطيب ورمز لسمو الإنسان ، وترفعه عن كل أغراض الحياة العادية ، ودليل على نبل الأخلاق بل هو عنوان على الإستقامة وعمق الإيمان وكماله ويشهد لهذا حديث معاذ بن جبل : " من أعطى لله ، ومنع لله وأحب لله ، وأبغض لله ، وأنكح لله فقد استكمل الإيمان (2) .

---

1 – أخرجه البخاري في كتاب العلم : باب الحرص على طلب الحديث 1 : 33

2 – أخرجه الترمذي في أبواب القيامة والرقائق والورع 9 : 323

وهذه الغاية المثلى بعيدة المنال لا تتحقق إلا بمجاهدة النفس وترويضها على هذا المسلك الصعب ، فلذلك قيل : " من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله تعالى نجا ، وذلك لعزة الإخلاص و سر تنقية القلب من هذه الشوائب [1] .

وللإخلاص مظاهر كثيرة ، فهو متعدد النواحي مختلف الأغراض متفاوت الرتب ولكن هذه الأنواع جميعها تتلاقى في الهدف المطلوب الذي هو تمحض العمل لوجه الله تعالى ، وهذه نماذج من تلك المظاهر وكيف تتلاقى في وجهة واحدة وغاية معينة .

فالإخلاص للنبي الأعظم صلوات الله وسلامه عليه يتجلى في حبه الصادق واتباع سنته الرشيدة والتأني به والامتثال له والحفاظ على شريعته بكل قوة .

وإخلاص المرء لوالديه يتحقق بالبر والإحسان إليهما طبقا لتعاليم الإسلام ومقرراته في ذلك وعدم الحياد عنها قيد أنملة .

والإخلاص في الصناعة يكون باتقانها ، وترك الغش فيها ، وترسم النفع عنها وفي هذا السياق جاء حديث عقبة بن عامر الجهمي[2] رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : " إن الله يدخل بالسهم الواحد الثلاثة الجنة : صانعه يحتسب في صنعته الخير والرامي به ، والممد به " [3] .

---

1 - الإحياء 14 : 2714 .

2 - عقبة بن عامر بن عيسى بن عمرو بن عدي 58/677 أسد الغابة 4:33 - 54

3 - أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد : باب الرمي 2 : 12 - 13 .

والإخلاص للوطن يبدو في حبه والتفاني في خدمته ، وإشاعة الخير ونفع بنية ، والرفع من مستواهم والعمل على ترقيتهم في كل الميادين ، وصيانته من كل مكروه ، والدفاع عنه والتضحية في سبيله بالغالي والنفيس .

وهكذا فإن مجالات الإخلاص تضيق عن الحصر . ولكن شرط تحققه في كل منهما السير وفق المنهج الشرعي .

وبهذا يكون الإخلاص المرآة الحقيقية التي تنعكس عليها العبادة الصحيحة ، والأخلاق العالية المركزة على الإيمان وإرادة الصلاح لجميع الناس ويعتبر أيضا مجمع الفضائل والمحاسن وسببا قويا للفوز في الأعمال وتحقيق الأمال ، ولذلك جعله الإسلام في مقام عال وأمر بالتمسك به وحث على التحلي به في محكم التنزيل ، أوعلى لسان الرسول الكريم .

قال الله تعالى : " قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين " (1) .

والأمر بالإخلاص ليس متعلقا بالعلة الإسلامية وحدها ، وإنما هو عام وشامل لمن سبقنا من الأمم ذات الديانات الألوهية ، ويظهر هذا من قول الله تعالى : " شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذين أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ، ولاتتفرقوا فيه " (2) .

---

1 – الزمر : 11 .

2 – الشوري : 13 .

وقال أبو العالية [1] : " وصاهم بالإخلاص في عبادته " [2] .

وقال قتادة : [3] ومجاهد [4] : " أوصيناك به والأنبياء " [5] .

ويتجلى الإخلاص بالتمسك بهذا المبدأ العظيم ، والتأكيد عليه في كثير من الآيات الكريمة التي ورد فيها ذكر له أو ما اشتق من مادته – خلص – مع إفادة معناها وقد تضمنت جميعها معاني جليلة وأغراضا سامية وأحكاما في التوجيه وسوف يقع الإقتصار على مرد جملة منها :

قال الله تعالى : " قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولم أعمالكم ونحن له مخلصين " [6] .

وقال المولى جل شأنه : " إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيرا إلا الذين تابوا وأصلحوا ، واعتصموا بالله ، وأخلصوا دينهم لله ، فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما " [7] .

وقال الحق تبارك وتعالى : " وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ،

---

1 – هو رفيع بن مهران الرباحي ( ) تهذيب التهذيب 3 : 284 – 286 .

2 – عمدة القاري 1 : 21 .

3 – قتادة بن دعامة السدوسي 177/ 735 تهذيب التهديب 8:351– 356 .

4 – هو ماجد بن جبير المكي (722/104) الحنية 3 : 279 – 310

5 – عمدة القارئ 1 : 21 .

6 – البقرة : 139 .

7 – النساء 145 – 148 .

وادعوه مخلصين له الدين " [1] .

وقال أصدق القائلين : " فاعبد الله مخلصا له الدين ، ألا لله الدين الخالص " [2] .

وقال العلي الأعظم :" فادعوا لله مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون " [3] وبالإضافة إلى الآيات القرآنية الرامية إلى الإخلاص ، والمبينة لعباد الله المكرمين المتصفين به فإن كتاب الله اشتمل على سورة استقلت بهذا الإسم ، وهي سورة الإخلاص التي سميت بذلك لأنها تضمنت التوحيد الخالص ، وأفردت الخالق بصفات الألوهية الحقة .

وقد أكملت السنة موضوع الإخلاص بما بينته لمختلف نواحيه وتأكيد مكانته، وتوضيح آثاره ، وقد سبق لنا ذكر شيئ من الأحاديث في ذلك ، وسيقع التعرض لعدد آخر منها عند التعرف على العنصرين الباقيين من الموضوع وحسبنا الآن أن نشير إلى حديث " الأعمال بالنيات " الذي أبرز أنه الإخلاص بتوضيح الفرق بين الهجرة الخالصة وبين الهجرة الوضيعة .

2 - دعامة الإخلاص

إن الإخلاص لا يكتمل إلا إذا كان مدعما بالصدق [4] صدق

---

1 - الأعراف 29 .

2 - الزمر : 2 - 3 .

3 - غافر : 14 .

4 - الأربعين في أصول الدين : 177 .

النية وصدق العزيمة وصدق الطوية . فالصدق هو ركيزة الإخلاص وهو المنظور إليه شرعا ولهذا فإن مجازاة المخلص لا تتوقف أحيانا على إنجاز العمل باكمله ،

إذ قد تعترضه عقبات كأداء لا قبل له باجتيازها ، أو قد تخترم المنية أنفاسه فيتوقف عمله عن التمام ولذلك راعى الشارع الإرادة الصادقة في العمل . وبنى الثواب على قدرها ، وهو أجل مغنم يدخر للمخلصين طبقا للأحاديث التي جائت ناطقة بذلك . فهذه ابنة عبد الله ابن ثابت [1] تبكي متحسرة على أبيها الذي وافاه أجله في منزله على فراش المرض بينما كانت رغبته الإستشهاد في الجهاد وتقول : والله كنت لارجو أن تكون شهيدا ، فإنك قضيت جهادك [2] فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: إن الله قد أوقع أجره على قدر نيته"[3] قال ابن عبد البر [4] : يدل الحديث على أن المتجهز للغزو إذا حيل بينه وبين ذلك يكتب له أجر الغزو على قدر نيته ، والآثار الدالة على هذا متواتر صحاح [5] .

ثم ساق عددا من الأحاديث أذكر منها ما جاء في صحيح

---

1 - عبد الله بن ثابت بن قيس الأنصاري، أبو الربيع - أسد الغابة 3:189- 190

2 - الجهاز ما يحتاج إليه في السفر إلى الغزو

3 - أخرجه مالك في الموطأ في كتاب الجنائز: باب النهي عن البكاء على الميت161

4 - أبو عبد الله يوسف بن عبد البر النمري(463-1071) -الصلة 2:640-642

5 - شرح الزرقاني على موطأ مالك 2 - 72

مسلم عن أنس [1] رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : " من طلب الشهادة صادقا أعطيها ولو لم يصبها " [2] أي أعطي ثوابها .

وأصرح من هذا حديث معاذ [3] : " من سأل الشهادة بقلبه صادقا بلغه الله منازل الشهداء ، وإن مات على فراشه " [4] .فهذا الحديث يدعم – مع غيره من الأحاديث – ماسلف بيانه [5] إلا أنه لابد من الملاحظة بأن طلب الاستشهاد حقيقة وعزما ليس من باب الزهد في الحياة كرها لها ويأسا منها فمعاذ الله أن يكون هذا المقصد صحيحا ، وإنما القصد الصحيح هو نشر الدين ، ورفع راية الإسلام عالية في كل أرض ، هذا القصد الذي هو جدير ببذل النفوس والتضحية بها في سبيله .ومهما يكن من أمر فسواء أكان الجزاء على مقدار العمل المنوي الذي استحال القيام به لمانع ما ، أم كان الجزاء على النية نفسها فإن الحديث المشروح حجة عامة في الاثبات على النية الصادقة العارية عن العمل لسبب ما مهما كان نوعها .

---

1 – أنس بن مالك بن النضر (93 – 712) أسد الغابة 1: 151 – 152

2 – أخرجه مسلم في كتاب الإمارة 6 : 48

3 – معاذ بن جبل الانصاري 639/18 – أسد الغابة 5 : 194 – 197

4 – أخرجه الترمذي في أبواب فضائل الجهاد : باب ما جاء فيمن سأل الشهادة 7 : 155 – 156

5 – الزرقاني على موطأ مالك 2 : 72

وفي هذا الصدد روي أبو كبشة الأنصاري [1] رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما الدنيا لأربع نفر عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقي فيه ربه ، ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقا ، فهذا بافضل المنازل ، وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا ، فهو صادق النية يقول : لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان فهو نيته فاجرهما سواء ، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما ، فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقا ، فهذا باخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول : لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو نيته فوزرهما سواء"[2] .

ويبدو هذا المعنى في غاية الوضوح في قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم ، حبسهم المرض " . وفي رواية : " إلا شركوكم في الأجر " [3] .

قال عياض [4] : " إن من تعذر عليه فعل ينبغي أن يعزم على فعله إذا أمكنه ويكون ذلك بدلا من فعله [5] .

---

1 - اختلف في اسمه فقيل هو عمرو بن سعيد وقيل سعد بن عمرو - أسد الغابة 6 : 261

2 - أخرجه الترمذي في أبواب الزهد 9 : 199 - 200 .

3 - أخرجه مسلم في كتاب الإمارة 6 : 49 .

4 - هو القاضي عياض بن موسى اليحصبي544/1149- الديباج 168-172

5 - إكمال الإكمال 5 : 258 .

وقال الأبي [1] : " المعية والمشاركة يدلان على أن له مطلق الأجر لا على المساواة [2] .

وما سبب تحقق هذه المشاركة إلا لأن قلوبهم – في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله – كقلوب الخارجين في الجهاد ، وإنما فارقوهم بالأبدان لعوائق تتعلق بالأسباب الخارجة عما انطوى عليه ، وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات [3] .

وعلى هذا الاعتبار يفسر قول الرسول صلى الله عليه وسلم المروي عن عبد الله بن عباس [4] رضي الله عنهما قال : " إن الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يفعلها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها كتب الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة .

ومن هم بسيئة فلم يعطها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة " [5] .

---

1 – محمد بن خليفة الوشتاتي (1425/828) التنبكتي نيل الإبتهاج بها من الديباج: 287 .

2 – إكمال الإكمال 5 : 259 .

3 – الإحياء 14 : 2695 .

4 – عبد الله بن عباس بن عبد المطلب 68 : 687 – أسد الغابة 2 : 276

5 – أخرجه مسلم في كتاب الإيمان 1 : 82 – 83 .

فالهم – كما عرفه التنبكتي [1] – هو ترجيح قصد الفعل على تركه ، تقول : هممت بكذا ، أي قصدته بهمي ، وهو زاد على مجرد تصور الشيئ بالقلب [2] .

قال ابن حجر [3] : " بوجود الإرادة تكتب الحسنة ، نعم ورد ما يدل على أن مطلع الهم والإرادة لا يكفي ، فعند أحمد وصححه ابن حيان [4] والحاكم [5] من حديث خريم ابن فاتك [6] مرفوعا : ومن هم بحسنة يعلم الله أنه قد أشعر قلبه وحرص عليها [7] .

وقد تمسك به ابن حيان فقال : " بعد ايراد حديث الباب في صحيحه – المراد بالهم هنا العزم " [8] .

فإشعار القلب وانشغاله بالعمل الشرعي والحرص عليه هو دليل

---

1 – أحمد بن التكروري الشهير بأحمد بابا (1663/1032) خلاصة الأثر 1 : 170 – 72 .

2 – غاية الأمل في فضل النية على العمل : 2 أ مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس رقم 5337.

3 – هو أحمد بن علي بن حجر العسقلاني(1449/852) الضوء الامع2:36– 40

4 – هو أبو حاتم محمد بن حيان البستي (965/354) طبقات الشافعية للسبكي 2 : 141 – 13 .

5 – محمد بن عبد الله بن محمد " 1014/405 " تاريخ بغداد 5 : 474/473 .

6 – خريم بن فاتك الأخرم – أسد الغابة 2 : 130 – 131 .

7 – المسند 4 : 345 .

8 – فتح الباري 11 : 278 .

على صدق المقصد ، لقد اتضح إذن أن الإخلاص لا يتحقق إلا إذا صاحبه صدق الطوية ، وإن هذا الصدق مدعاة لنيل المخلص ما يرجوه من الثواب والجزاء الحسن ولو عاقه عن إتمام عمله عائق ما

3 - آثار الإخلاص الإيجابية المترتبة عليه

مما ثبت بالنصوص الشرعية وأكدته الأدلة القطعية أن الجزاء يكون من جنس العمل ، والعمل الطيب لا تترتب عليه إلا الآثار الطيبة، وانطلاقا من هذا المبدأ العظيم فإن المخلص في أعماله سيحالفه النجاح حتما وسيفوز بمغانم جزيلة النفع جمة الفوائد .

وهذه المغانم التي تمد العناية الإلهية بها كل مخلص مختلفة النوع والقيمة ويمكن حصرها في نوعين : عاجلة وآجلة .

فالعاجلة متعددة نذكر منها مايلي :

أ - الإخلاص عامل تربية فهو يقوم شخصية الإنسان ويهذب سلوكه ، ويربيه على ملازمة جانب الصدق ، والسير في منهج القويم، ويؤثر في القلب حيث يتعود على إرادة الخير .

فالإخلاص بهذا مرهم ساحق للكثير من أهواء النفس الخبيثة كالطمع والرياء والخداع والكبرياء والأنانية والغرور والكذب ...

وإذا سمت النفوس من جميع تلك النقائص وتطهرت منها القلوب اتجه الناس - بصدق - إلى ربهم ، وإن هم فعلوا ذلك ساهموا في تركيز المجتمع على أسس متينة من الحق ، وعملوا على إشاعة الفضائل ونشر المثل العليا ، وساروا بخطى ثابتة مطمئنة صوب أهداف منشودة .

ومن كان هذا شأنه فهو جدير بكل إكرام وإعزاز وحري بأن يقدره الناس ويمدحوا عمله ، ويثنوا عليه ، وحتى لو غمر قلبه الفرح

بشكر الناس له وتقديرهم إياه - معتقدا أن ما ناله بفضل الله ورحمته ودون أن يخالطه شيئ من الغرور - فإن إخلاصه يستمر على صفائه ، وأجره يبقى على كماله ويكون مدح الناس له زيادة في الأجر العاجل .

وفي هذا السياق ورد حديث أبي ذر الغفاري [1] رضي الله عنه الذي سأل الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا : " الرجل يعمل لله فيحبه الناس عليه" ، قال : " ذلك عاجل بشرى المؤمن [2] .

فهذا هو المعنى الذي فسر به الإمام أحمد [3] وغيره الحديث الآنف الذكر [4] .

فسرور المرء بعمله وإعجابه بثناء الناس عليه هو نوع من الجزاء العاجل الذي دعمه ما جاء عن أبي هريرة [5] رضي الله عنه أن رجلا قال : " يارسول الله الرجل يعمل العمل فيسره ، فإذا أطلع عليه أعجبه ذلك ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " له أجران أجر السر وأجر العلانية " [6] .

---

1 - جندب بن جنادة توفي سنة 31/651 وقيل 32/652 الاستيعاب 4 : 1652 - 1656

2 - أخرجه مسلم في كتاب الصلة والبر والآداب 8 : 44 .

3 - أحمد ابن حنبل (241/855) الحلية 9 : 161 - 233 .

4 - جامع العلوم والحكم 1 : 36 .

5 - عبد الرحمان الدوسي (87ك676) - أسد الغابة 6 : 318 .

6 - أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد باب الثناء الحسن 2 : 1411 - 1413 .

ب – الإخلاص شرط لنجاح العمل : الإخلاص هو أكبر باعث على القيام بأعباء مسؤوليات الحياة المختلفة ، وأقوم ساعد على تحقيق الفوز فيها ، وتوفير المناعة الاقتصادية ، والأخذ بأسباب الرقي والإزدهار .

فالصانع الذي يأمل الوصول إلى الثراء معتمدا في ذلك على البهرج والزخرفة دون الاتقان وإجاد الصنعة يجلب لمؤسسته الخسارة ولأمواله الضياع .

والتاجر الذي يغش في البضاعة ويخلط الجيد بالردي ، أو يطمع في الربح الفاحش بطرق ملتوية لا يطمع بالغنم الوفير في مسعاه ، إذ سرعان ما يقع التفطن لمعاملاته السيئة ، ويهجر ، وتبور تجارته ، ويصير من الفاشلين .

والأجير الذي لا يؤدي عمله على الوجه المشروع فيتقاعس عنه أو يحدث خللا فيه سوف يفتضح أمره في يوم من الأيام ، وسوف لن يكافأ على استهتاره بالمسؤولية المناطة بعهدته إلا بعقوبات قد يكون من ضمنها الحرمان والطرد .

وهذا فإن كل عمل جل أوصغر يتوقف إنجازه أو الإخفاق فيه على مدى تمسك صاحبه بركن الإخلاص ، وكلما وقع التقصير فيه تعرض المجتمع لأخطار جسيمة مادية ومعنوية تسري في كيانه ، زيادة عما يلحق المتخلي عنه من انزعاج الضمير ، واضطراب النفس وتمزق التفكير ، وتذبذب الباطن ، والخوف المتواصل ، والخشية الرهيبة من اكتشاف خيانته وتعرضه لإسوأ العواقب ، وأوخم النتائج، بالرغم من الحرص على الظهور بزي المخلص الصدوق .

ج – الإخلاص سبب للنجاة من المخاطر : عندما تكتنف حياة الإنسان المخاطر وتداهمه المصاعب التي لا قبل له بالتقلب عليها ،

ويستحيل عقلا التخلص منها ، وينقطع جبل الرجاء قد تتدخل العناية الإلهية في هذه الفترات الخانقة بأسباب تجعل المستحيل ممكنا ، والصعب ميسورا ، والتصور البشري هباء .

ومن تلك الأسباب الإخلاص فقد تأكد أنه معين على تخفيف الشدائد ووسيلة لتفريج الكروب ، ولا أدل على ذلك من هذه الحادثة التي رواها عبد الله بن عمر [1] رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : " خرج ثلاث يمشون فأصابهم المطر ، فدخلوا في غار في جبل فانحطت عليهم صخرة ، فقال بعضهم لبعض : ادعوا الله بأفضل عمل عملتموه !

فقال أحدهم : اللهم إني كان لي أبوان شيخان كبيران ، فكنت أخرج فارعى ثم أجيئ فأحلب ، فأجيئ بالحلاب [2] فآتي به أبوي فيشربان هم ثم أسقي الصبية وأهلي ، وامرأتي فاحتبست [3] ليلة فجئت فإذا هما نائمان . قال : فكرهت أن اوقظهما ، والصبية يتضاغون [4] عند رجلي فلم يزل ذلك رأيي ورأيهما حتى طلع الفجر. اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج عنا فرجة نرى منها السماء !

قال : ففرج عنهم .

---

1 – عبد الله بن عمر بن الخطاب * 692/73 * أسد الغابة 3 : 340 – 345 .

2 – الحلاب : الإناء الذي يحلب فيه ، ولكن المراد هنا اللبن المحلوب .

3 – احتبست : تاخرت .

4 – قال عياض يتضاغون ، أي يضجون من الجوع ، والضغاء صوت المذلة – إكمال الإكمال 7 – 150 .

وقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أني كنت أحب إمرأة من بنات عمي كاشد مايحب الرجل النساء . فقالت : لا تنال ذلك حتى تعطيها مئة دينارا فسعيت فيها حتى جمعتها

فلما قعدت بين رجليها قالت : إتق الله ، ولا تفض الخاتم إلا بحقه [1] فقمت وتركتها ، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة !

قال : ففرج عنهم الثلثين .

وقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أني استأجرت أجيرا، بفرق [2] من ذرة فاعطيته ، وأبى ذلك أن يأخذ فعمدت إلى ذلك الفرق فزرعته حتى اشتريت منه بقرا وراعيها ثم جاء فقال : ياعبد الله أعطيني حقي !

فقلت : إنطلق إلى تلك البقر وراعيها فإنها لك !

فقال : أتستهزئ بي ؟

فقلت : ما استهزئ بك ، ولكنها لك .

اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج عني !

فكشف عنهم [3] .

فهذا الحديث المشتمل على كثير من الأحكام الشرعية يدل كما قال عياض – على إمكانية تقريب العبد إلى ربه بما قام من الأعمال

---

1 – الخاتم : كتابة عن العذرة .

2 – الفرق : مكيال يسع ثلاثة آصع .

3 – ممن أخرجه هذا الحديث البخاري في كتاب البيوع : بـــاب إذا اشتـــرى شيئا لغيره بغير إذنه فرضى 3 : 37 .

الصالحة الخالصة [1] زيادة عما أكده من اثبات مغانم الإخلاص التي من أهمها قرب المخلص من الله واستجابة دعائه .

هذه بعض آثار الإخلاص ومكاسبه العاجلة ، أما الآجلة فرفعها درجة واعلاها مقاما السعادة الأبدية ، والتنعم بلقاء الله ، والنظر إلى وجهه الكريم ، وهو ما أبانته الآية : " فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا " [2] .

ب - الرياء

الحديث عن الرياء طويل ومتشعب ، إلا أننا سنتناول بقدر الإمكان تحديد أبعاده ، ووضعها في إطارها الشرعي ، هذه الأبعاد التي يمكن حصرها فيما يلي :

1 – تعريف الرياء ، ونظرة الشارع إليه
2 – أنواع الرياء ، وموقف الدين منها
3 – أساليب المرائين بين المقاصد الخبيثة والطيبة
4 – التعظيم الذي ينشده المراؤون قد يكون مباحا أو واجبا

1 – تعريف الرياء ونظرة الشارع إليه

الرياء مشتق من الرؤية ، والإسم الرياء يقال : فعل ذلك رياء وسمعه [3] أي لينظر الناس إلى عمله أو يسمعوا به .

---

1 – إكمال الإكمال 7 : 150 .
2 – الكهف : 110 .
3 – الصحاح 6 : 2347 – 2348 .

فالرياء بالمفهوم السالف الذكر هو إبراز الإنسان لجملة من الأعمال يلفت بها أنظار الناس إليه ، ورغبة في تحقيق مكاسب ، أو غنم منافع ، أو دفع الضر والأذى ، وإيجاد مكانة لديهم حتى نصير مركز اهتمامهم ومرموقا من جانبهم بعين الاحترام والتقدير ، إلا أن هذا المعنى عام يتسع إلى كل الأنماط التي يستعملها المراؤون ، وهي لا تخرج عن شكلين :

أ – المراءاة بشئون الحياة الدنيوية ، ومايتعلق بها من أثاث ورياش وعقار ، وغير ذلك من وسائل اللذة والنعيم [1] .

ب – المراءاة بالطاعات ، وجميع ما يتقرب به إلى الله تعالى من طاعات وقربات ، وهو ما عناه المحاسبي [2] بقوله : "... إرادة العباد بطاعة الله " [3]

والرياء تختلف درجات خطورته باختلاف نوعه لأنه يكون بالمعتقدات أو بالفرائض أو بالنوافل أو بأوصاف العبادات [4] .

وتتجلى المراءاة بالعقيدة لدى المنافقين الذين يظهرون كلمتي الشهادة وقلوبهم منطوية على التكذيب بها ، وعقولهم منكرة لها ، وهذا أخطر نوع من أنواع الرياء لما يتضمنه من المكر المبيت للإسلام ولذلك ندد به المولى جل شأنه في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، وبين مصير المنافقين مثل قوله سبحانه وتعالى : " إن

---

1 – الرعاية لحقوق الله : 147 .

2 – هو الحارث بن أسد المحاسبي 243/857 تاريخ بغداد 8 : 211 .

3 – الرعاية لحقوق الله : 133 .

4 – الإحياء : 10 : 1874 – 1877 .

المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا " [1] .

ومعلوم أن هذا من باب النفاق ، وفي تسميته رياء ليس على حقيقته للإختلاف الجوهري الواضح بينها ، لأن النفاق شرعا هو إظهار الإسلام باللسان مع إظهار الكفر باطنا اظطرارا لا اختيارا ، وقد دل على هذا القرآن الكريم في عدد من الآيات كقوله تعالى : " إذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد إنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله ، والله يشهد أن المنافقين لكاذبون " [2] ، وقوله جل شأنه : " ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمومنين يخادعون الله والذين آمنوا ومايخادعون إلا أنفسهم ومايشعرون " [3]

أما الرياء فقد يكون المتصف به مسلما وقد يكون كافرا ومن هنا اختلف الرياء عن النفاق بالرغم من اتحادهما مظهرا وشكلا .

إن هذا النوع من الرياء يتقلص ظله في البلدان الإسلامية التي ارتضت انتهاج طريق العلمانية كنظام عام لتسيير دواليب الدولة وشؤون المجتمع على أسسه وقواعده ، وهذا النظام الذي تجد فيه التيارات الفكرية المنحرفة والفلسفات الضالة المناخ الملائم لنموها وشيوعها واعتناقها وهو ما يلاحظ في كثير من موجات الإلحاد المكتسحة لإرجاء العالم الإسلامي كالشيوعية والوجودية وغيرها من الأيديولجيات الهدامة الخطيرة .

أما الرياء بالفرائض فمن صور التظاهر – مثلا – بصلاة

---

1 – النساء : 145 .

2 – المنافقون : 1 .

3 – البقرة : 8 – 9 .

الجمعة ، مع أن ذلك المرائي لا يميل إلى ذلك ، ولكنه مدفوع بعوامل خوف المذمة ، أو خشية افتضاح أمره ، وانكشاف عصيانه إن كان هناك رأي عام إسلامي يشدد النكير على المستهترين بالواجبات الدينية ، ويضرب على أيدي العابثين بها ، وإلا فإن بواعث هذا الرياء تنعدم ، ويصير انتهاك الواجبات الدينية أمر عاديا ميسورا .

وكما تقع المراءاة بالواجبات تقع بالنوافل – أيضا – كالقيام بصلوات الرواتب ، وتقع – كذلك – بأوصاف العبادات مثل حضور صلاة الجماعة ، أو المبادرة إلى الجلوس في الصف الأول بالمسجد

فالرياء بالعبادات – بصرف النظر عن نوعه وشدته أو ضعفه – فظيع جدا، لأنه يحمل من العبادة – التي هي وسيلة للسمو الروحي – مطية إلى تحقيق مآرب شخصية زائفة ، وغايات ذاتية دنيوية ومن هنا كان هذا الفعل استهتارا بمقام الربوبية ، وعملا إجراميا شنيعا ، ولذلك جاءت الآيات والأحاديث منددة بهؤلاء المرائين ، فاضحة إياهم، مبطلة لأعمالهم التي كانت على تلك الشاكلة ، متوعدة إياهم بأبشع مصير .

قال الله تعالى : " والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور " (1)

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : " هو أهل الرياء " (2) .

وقال سبحانه وتعالى : " فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم

---

1 – فاطر : 10

2 – الجامع لاحكام القرآن 14 : 332 .

ساهون الذين هم يراؤون " [1] وقال الرسول صلى الله عليه وسلم – رواية عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما " من سمع سمع الله به ، ومن راءى راءى الله به " [2] .

وروى محمود بن لبيد [3] عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : " إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر " .

قالوا : " وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟ "

قال: "الرياء يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا ، فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء" [4] .

فالرياء مهما كان شكله خداع ومكر وافتراء ، ونفاق للمجتمع، ومغالطة له ، وبالتالي هو كذب على الله – وليس هذا بالأمر الهين ، بل هوجريمة نكراء ، يخبأ لمرتكبها عقابا أليما ، وفضيحة مرة على رؤوس الملأ ، وهو ما عبر عنه حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل أستشهد فأتي به معرفة نعمه فعرفها ، قال : " فما عملت فيها "

قال : قاتلت فيك حتى استشهدت .

قال : " كذبت ولكنك قاتلت ، لأن يقال فلان جريء ، فقد قيل ،

---

1 – الماعون : 4 – 5 – 6 .

2 – أخرجه البخاري في كتابه الرقاق : باب الرياء والسمعة 7 : 189 .

3 – هو محمود بن لبيد بن رافع الأنصاري 96/714 "أسد الغابة 5:117– 118

4 – أخرجه أحمد في المسند 5 : 428 – 429 .

الإخلاص [1] لأنه تمحض لنية واحدة معينة ، كالمنافق الذي يتظاهر بالإيمان مع إصراره الباطني على الكفر ، أو من لا يصلي إلا في الملأ من الناس، سعيا لنيل مأرب دنيوي ، لا رغبة في الامتثال والخضوع للمشرع الحكيم .

فهذا النوع من الرياء يجلب لصاحبه المقت والخسارة وهو محبط للعمل استنادا على النصوص الشرعية التي منها : ما رواه أنس رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" يجاء يوم القيامة بصحف مختمة فتنصب بين يدي الله عز وجل ، فيقول الله عز وجل : " ألقوا هذا واقبلوا هذا !"

فيقول الملائكة وعزتك ما رأينا إلا خيرا

فيقول – والله أعلم : " إن هذا كان لغيري ، ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما ابتغى به وجهي " [2] .

فتعسا لهذا الصنف من الناس الذين حادوا بالعبادة عن منهجها الصحيح ، وجعلوها مرقاة إلى أغراضهم الخبيثة ، فإنهم سوف لن يجدوا من أعمالهم إلا ما يظفر به المراؤون وأمثالهم من جاه أو رتب أو ألقاب فخمة وغيرها ، كما جاء ذلك في حديث عبادة بن الصامت [3] رضي الله عنه : " من غزا في سبيل الله وهو لا

---

1 – الفروق للقرافي 3 : 22 .

2 – أخرجه الدارقطني في كتاب الطهارة باب النية 1 : 51 .

3 – عبادة بن صامت بن قيس الإنصاري 654/34 أسد الغابة 3 : 160 – 161

ينوي في غزاته إلا عقالا فله ما نوى " [1] .

2 - الرياء المشوب بنية التقرب

هو الذي تتمازج فيه إرادة الإخلاص والثواب مع نية الرياء ، ويسمى رياء الشرك فهو محبط للأعمال حسب رأي كثير من العلماء

وممن ذهب إلى هذا من السلف عبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء [2] ، وسعيد بن المسيب [3] ، وغيرهم [4] ، وسندهم في ذلك النصوص الشرعية العديدة كقول الله تعالى : " فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا " [5] .

وروي أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله عز وجل : أنا أغنى الشركاء من الشرك ، فمن عمل لي عملا أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو للذي أشرك [6] .

وجاء عن ابن سعيد بن أبي فضالة [7] رضي الله عنه أن

---

1 - أخرجه النسائي في كتاب الجهاد : باب من غزا في سبيل الله ولم ينو من غزاته إلا عقالا : 24 - 25 .

2 - هو عويمر بن مالك توفي قبل عثمان بسنتين أسد الغابة 4 : - 320 .

3 - سعيد بن المسيب بن حزم " 64/713 " حلية الأولياء 2 : 161 - 175 .

4 - جامع العلوم والحكم لإبن رجب 1 : 33 .

5 - الكهف : 110 .

6 - أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق 8 : 223 .

7 - أبو سعيد بن أبي فضالة الحارثي - أسد الغابة 6 : 139 - 140 .

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله ، فليطلب ثوابه من عند غير الله عز وجل فإن الله أغنى الشركاء من الشرك [1] .

وروى أبو أمامة رضي الله عنه قال : " جاء رجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ماله فقال رسول الله : " لا شيئ له " ، فأعاد الرجل سؤاله ثلاث مرات ، وكان الرسول يقول : لا شيئ له ثم قال : إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا ، وابتغى به وجهي [2] .

فهذه الأدلة وغيرها شاهد صدق على نسف العمل المشوب بالرياء ، وهو ما نص عليه القرافي [3] وشرحه شرحا صافيا ، وبينه بيانا كافيا فقال : " أعلم أن الرياء في العبادات شرك وتشريك مع الله تعالى في طاعته وهو موجب للمعصية والإثم والبطلان في تلك العبادة كما نص عليه الإمام المحاسبي وغيره ويعضده ما جاء في الحديث الصحيح [4] .

وبعد أن ذكر القرافي الحديث المتقدم : " أنا أغنى الشركاء عن الشرك ..." قال : " فهذا ظاهر في عدم الإعتداد بذلك العمل عند

---

1 – أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد باب الرياء والسمعة 2 : 1405 .

2 – أخرجه النسائي في كتاب الجهاد : باب من غزا يلتمس الأجر والذكر 6 : 25

3 – أحمد بن إدريس القرافي المالكي " 1285/684 " الديباج 63 – 66 .

4 – الفروق 3 : 22 .

الله تعالى .

وكذلك قوله تعالى : " وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين [1] يدل على أن غير المخلصين لله ليسوا مأمورين به ، وما هو غير مامور به ،لا يجزئ عن المامور به ، فلا يعتد بهذه العبادة وهو المطلوب " [2] .

وقال ابن رجب [3] : " ولا تعرف عن السلف في هذا خلافا وإن كان فيه خلاف من بعض المتأخرين [4] ، أما الإمام الغزالي [5] فيسلك مسلكا وسطا إذ يرى أن العمل المشوب - مهما كان نوع شائبته رياء أو حظا دنياويا - لا يمكن الحكم على جميعه أو بالأحرى على نية إرادة الثواب فيه بالحبوط ، وهذا ما يتجلى في قوله: " وظاهر الأخبار تدل على أنه لا ثواب له ، وليس تخلوالأخبار من تعارض فيه .

والذي ينقدح لنا فيه - والعلم لله - أن ينظر على قدر قوة الباعث ، فإن كان الباعث الديني مساويا لباعث النفس تقاوما وتساقطا ، وصار العمل لا له ولا عليه ، وإن كان باعثا الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع ، وهو مع ذلك مضر ، ومفض للعقاب نعم

---

1 - البينة : 5 .

2 - الفروق 3 : 22 .

3 - هو عبد الرحمان بن أحمد الحنبلي 795/1393 الدرر الكامنة 2:321-322

4 - جامع العلوم والحكم : 1 : 34 .

5 - هو محمد بن محمد حجة الإسلام 505/1111 طبقات الشافعية للسبكي 4 : 104 - 182 .

العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرد للرياء ولم يمتزج بشائبة التقرب ، وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني ، وهذا لقول الله تعالى : " فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره"(1).

ولقوله تعالى : " إن الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها " (2) فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير ، بل كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة وإن كان مغلوبا سقط بسببه شيئ من عقوبة القصد الفاسد " (3) .

إن ما سلف تقريره خاص برياء الشرك ولكن إذا كان الممازج للغرض حظا دنيويا غير الرياء فهل يجوز ذلك ؟

إذا امتزجت إرادة الثواب بغرض ديني مباح فلا تأثير على نية الثواب ، وإنما تقع المكافأة على حسبها ، ويشهد لهذا الحديث الذي رواه عبد الله بن عمر (4) رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : " إن الغزاة إذا أغنموا غنيمة تعجلوا ثلثي أجرها فإن لم يغنموا شيئا تم لهم أجرهم " (5).

---

1 – الزلزلة : 7 – 8 .

2 – النساء : 50 .

3 – إحياء علوم الدين 14 : 2722/2721 .

4 – عبد الله بن عمرو بن العاص " 713/94 " أسد الغابة : 349 – 351 .

5 – أخرجه مسلم في كتاب الإمارة 6 : 47 – 48 .

قال القرافي متبينا أن هذا النوع من المزج في العمل بين نية الإخلاص والغرض الدنيوي لا ينال من المقصد الشريف : " وأما مطلق التشريك كمن جاهد ليحصل طاعة الله بالجهاد وليحصل المال من الغنيمة ، فبهذا لا يضره ، ولا يحرم عليه بالإجماع ، لإن الله تعالى جعل له هذا في هذه العبادة " (1)

فالجمع بين الدنيا والآخرة هو أحد المبادئ المميزة للإسلام ، الذي أوضحته السنة النبوية – كما لاحضنا ذلك سلفا – بعد تشريح القرآن له ، وذلك في قول الله تعالى : " وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولاتنسى نصيبك من الدنيا " (2)

3 – أساليب المرائين بين طيبة المقصد وخبث الطوية

إن غزو أفئدة الناس ، والاستحواذ على مشاعرهم وعواطفهم وامتلاك حبهم وودهم وتقديرهم والحصول على إعجابهم وثنائهم وتأييدهم لا يتأتى إلا بمقدار ما يتمتع به المرء من ملكات ومواهب وما يقدمه من عمل صادق مفيد لخير المجتمع وصالح أفراده ، وما يعرف به من سجايا عالية ونبل واستقامة وما يخص به من تفوق وإبداع وإخلاص في أي مجال من مجالات الحياة المختلفة ، فكلما كان العطاء سخيا صافيا نقيا كانت درجة الاعتبار والاحترام في سمو ورفعة متزايدة ولكن نوعا من الناس تهفو قلوبهم إلى تسنم ذرى المجد ، أو الكرم من مباهج الحياة وزينتها وليس لديهم المؤهلات

---

1 – الفروق 3 : 22 .

2 – القصص : 77 .

التي تمكنهم من تحقيق رغباتهم فيلجؤون إلى التمويه والتزوير والخداع لإدراكها .

ونجد نوعا آخر منهم يتعشقون المدح والشكر أو يرهبون سخط الرأي العام عليهم ،فيعملون من أجل ذلك ، ولذا يضطرون إلى إخفاء ما يعتمل في بواطنهم من رغبات ، والتظاهرات بأعمالهم مستعملين لهذا الغرض أساليب عديدة يراؤون بها الناس تم حصرها من طرف العلماء وقد جاءت على لسان المحاسبي في قوله : " المرائ به والمتزين به خمسة أشياء :

يرائ العبد ببدنه وبزيه ، وبقوله ، وبعمله ، وبغيره من الصحابة والقرابة ، فيرائ بالطاعة بهذه الأشياء الخمسة وكذلك أهل الدنيا يراؤون بالدنيا بهذه الخصال الخمس ، إلا أن ذلك أيسر من الرياء بالطاعة " [1] .

وهذا ما أكده الغزالي مع اختلاف ضئيل في العبارة [2] ولعله إقتبسه من المحاسبي ، فالمراءاة بالبدن تتخذ أشكالا تختلف باختلاف الأشخاص فيستدل مثلا بذبول الجسم واصفراره وسيماء السجود على كثرة العبادة وبإطراق الرأس وملازمة الهدوء في الحركات على الوقار واتباع الدين وعلى العكس من هذا ما يلاحظ لدى المهتمين بالدنيا وذلك بإبراز مايتمتع به البدن من صحة جيدة ، وقوة في الأعضاء والعضلات ، وغير ذلك من كل مايدل على ما ينعم

---

1 - الرعاية لحقوق الله عز وجل : 174

2 - الإحياء 10 : 1866 .

به الجسم من ضروب الراحة ، أوالجمال أو الصلابة .

وتكون المراءاة بما يرتديه المرء من ملابس العلماء ، وأهل المروؤة والصلاح تخليلا ومخاتلة ، أو بإظهار ثرائه بما اقتناه من غالي الثياب ونفيس الرياش ، ووفرة السيارات ، وسوى ذلك من وسائل الترفه بالحياة

أما المراءاة بالقول فتتجلى في أنواع كثيرة كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإرشاد والوعظ والتذكير والاستشهاد بالآيات والأحاديث عند الحاجة إليها ، وسحر العبارة ، وقوة التأثير على المسامع والقلوب ووسائل الإقناع ، وما إلى ذلك مما يستهوي القلوب، ويؤدي إلى الشهرة .

ومن أنواع الرياء بالعمل ما يتظاهر به بعض الناس في القيام بالطاعات أو القربات ، كالإثار من الإنفاق وإتيان المساجد للصلاة ، أو المساهمة في المشاريع الخيرية ، أو تخصيص أجزاء من الوقت خدمة للمصلحة العامة .

والمراءاة بالإتباع مثل مصاحبة أهل السلطة والنفوذ ، أو أصحاب الجاه أو أولي العلم توحي إلى الملاحظين بأن ذلك الشخص المرائي يحتل منزلة عند أولئك ، ولولا ذلك لما كان جديرا بالقرب منهم ومخالطتهم . وهذا الظن أو الإعتقاد داع إلى التقدير والإكبار ، والتوسل به لقضاء الحاجات .

إن جملة أساليب المرائين التي ذكرنا نماذج منها ليست كلها ممنوعة شرعا ، فالمتعلقة بالعبادة هي عصيان وإثم لأن المقصود بها المخلوق لا الخالق ولأن فيها كما قال الغزالي: استخفاف بالمولى جل شأنه – من جهة – وتلبيس على العباد – من ناحية أخرى – حيث يقع أيها مهم من طرف المرائي باخلاصه وطاعته لله مع خلو باطنه

من ذلك . وتملك القلوب بالمكر والخداع حرام [1] .

ولكن إذا اقتضى الأمر إظهار العبادة لما تتمثل عليه من فوائد فإن ذلك أحسن كأن تكون – مثلا – سببا في اقتداء الناس بها ، وحملهم على القيام بها كالبذل في سبيل الله مع إرادة الترغيب في ذلك .

ولعل ما جاء في حديث جرير بن عبد الله [2] رضي الله عنه خير دليل على ذلك قال جرير : " جاء ناس من الأعراب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، عليهم الصوف فرأى سوء حالهم ، وقد أصابهم حاجة فحث الناس على الصدقة ، فابطأوا عنه حتى رؤي ذلك في وجهه ثم قال : " إن رجلا من الأنصار جاء بصرة ورق ثم جاء آخر ، ثم تتابعوا حتى عرف السرور في وجهه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من سن في الإسلام سنة فعمل بها بعده ، كان له مثل أجر من عمل بها ، ولا ينقص من أجورهم شيئ.. " [3]

إن إعلان الأنصاري لصدقته حافز قوي على اقتفاء أثره ، ومحرك للهمم ومشاعر الخير فيهم على اتباعه ، ولذلك باركه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحرض المسلمين على المبادرات الطيبة التى

---

1 – الإحياء 10 : 1872/1871 .

2 – جرير بن عبد الله بن جابر : توفي سنة 971/51 أسد الغابة 1 : 233 .

3 – أخرجه مسلم في كتاب الصلح 8 : 61 – 62 وتمام الحديث هو : من سن في الإسلام ، سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شي.

تكون على شاكلته في إسعاد الناس والقضاء على مظاهر الحرمان والبؤس والتي تكون محل اقتداء ، وتستوجب إسترسال الأجور لصاحبها كلما وقع النسخ على منوالها وهذا ما أكده الغزالي في قوله : " وتجري سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة والصيام والحج ، والغزو ، وغيرها ، ولكن الاقتداء في الصدقة على الطباع أغلب .

فكل عمل لا يمكن إسراره كالحج والجهاد والجمعة ، فالأفضل المبادرة إليه ، وإظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء " [1] . فقد اتضح بعد هذا البيان أن التجاهر بأعمال العبادات يحمل الناس على فعلها ، لا يكون من باب الرياء المحرم ، وهو مطلوب شرعا .

والمراءاة بغير العبادات الغرض منها تأسيس منزلة في قلوب الناس، ولهذا فهي مباحة وقد بين هذا الغزالي في قوله : " وكما أن كسب قليل من المال – وهو ما يحتاج إليه الإنسان – محمود فكسب قليل من الجاه ، وهو ماسلم من الأفات أيضا محمود، ولكن انصراف الهم إلى طلب الجاه نقصان في الدين ولا يوصف بالتحريم"[2] .

ومن هذا القول ندرك أن المراءاة بغير العبادات تختلف أيضا باختلاف الغايات ، فتكون مباحة وتكون مذمومة إذا انطوت على الباطل وتكون أيضا مطلوبة شرعا ، ومرغب فيها لما تتوفر لها

---

1 – الإحياء 10 : 1900 .

2 – الإحياء 10 1870 .

أسباب ذلك وسوف تذكر مثلا لتوضيح ذلك :

إن تجمل الإنسان وارتداءه لأحسن الثياب مطلوب شرعا وقد حث عليه الرسول صلى الله عليه وسلم في العديد من المناسبات ، فمن ذلك الدعوة إلى التزيين يوم الجمعة وأيام الأعياد ، فقد روت عائشة رضي الله عنها [1] أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، خطب الناس يوم الجمعة فرأى عليهم ثياب النمار [2] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما على أحدكم ان وجد سعة أن يتخد ثوبين لجمعة سوى ثوبي مهنته " [3] .

فهذا الحديث كما قال الباجي [4] : " يحرض على التجميل بأجمل الثياب في يوم الجمعة عيد المسلمين الذي سن فيه ذلك ، كما سن في عيد الفطر والأضحى .

وفيه أيضا دليل على اقتناء ثوبين أقل ما يمكن استعدادا للظهور بأحسن هيئة ، على حسب عادة المسلمين الأوائل في اتخاذ ملابس خاصة بالجمعة آنذاك [5] وبالإضافة إلى ذلك فإن لبس الثياب

---

1 – عائشة بنت أبي بكر الصديق أم المؤمنين " 678/58 : الإستعاب 4 : 1881 – 1885 .

2 – النمار بكسر النون جمع نمرة : بردة يلبسها الأعراب .

3 – أخرجه مالك بلاغا في كتاب الجمعة : باب الهيئة وتخطي الرقاب ، واستقبال الإمام يوم الجمعة الموطأ : 89 وأخرجه إبن ماجد في كتاب إقامة الصلاة : باب ما جاء في زينة يوم الجمعة 1 : 348 – 349 .

4 – سليمان بن خلف " 1081/414 " الصلة 1 : 197 – 198 .

5 – المنتقى 1 : 203 .

الجميلة مع مراعاة الاقتصاد ، وترك الإسراف ، إقرار بنعم الله التي ينبغي التعرف بها شرعا وقد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : " إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده " [1] .

إن ظهور الإنسان برائع الثياب وجميل الهيئة يبعث على احترامه وإجلاله وحبه ، والتقرب إليه ومعاشرته والتعامل معه ، والتشبه به ويبعده ذلك عن الذم والنفور والإشمئزاز منه وكراهيته ، ولكن التجمل رياء ومدعاة إلى الكبر ، واحتقار للغير كان محرما لما يتركه من الآثار السيئة في النفوس ، ولذلك استحق فاعله غضب الرب ، مثلما أخبر بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم : " فيما رواه ابن عمر رضي الله عنه :" لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء"[2].[3] .

فالتعالي بالملابس الفاخرة وجرها - كما قال عياض - إنما وقع تحريمه لهذه العلة [4] وإن من تكون نيته غير ذلك فلا ضير عليه ، ولهذا قال ابن حجر : والذي يجمع من الأدلة إن من قصد بالملبوس الحسن إظهار نعمة الله عليه ، مستحضرا لها ، شاكرا عليها ، غير محتقرا لمن ليس مثله ، لا يضره ماليس من المباحات ولو كان في

---

1 - أخرجه الترمذي في كتاب الأدب : باب ماجاء أن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده 10 : 259 .

2 - الخيلاء : الخال والخلاء : الكبر ، ومنه اختال وهو ذو خيلاء وذو خال ، رذو مخيلة أي ذو كبر ، الصحاح 4 : 1691 - 1692 .

3 - أخرجه مسلم في كتاب اللباس : 6 - 146 - 148 .

4 - إكمال الإكمال 5 : 384 - 385 .

غاية النفاسة " [1] ومثل هذا كل من أراد بعلمه ذلك خيرا .

إن رغبة المرء في التجمل البريء والتحلى بالثياب المباحة لا يتعارض مع مبادئ الإسلام ولذلك فإنه لما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار يعني من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان " ، قال له رجل إنه يعجبني أن يكون ثوبي حسنا ، ونعلي حسنا ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله يحب الجمال ، ولكن الكبر من بطر الحق [2] وغمص الناس [3] . [4] .

ويتراءى لنا هذا المعنى بصورة أجلى في قول النبي صلى الله عليه وسلم " ... ومن الخيلاء ما يحب الله عز وجل ، ومنها مايبغض الله عز وجل ..." والإختيال الذي يحب الله تعالى إختيال الرجل بنفسه عند القتال وعند الصدقة ، والاختيال الذي يبغضا الله عز وجل الخيلاء في الباطل [5] .

فمن نوى بإظهار عمله الصلاح كاقتداء الناس به في اللباس أو الصدقة أو الجهاد ، أو دعوة الناس إلى خير ما ، خرج به ذلك عن دائرة الرياء الممنوع ، بل يكون الإظهار متأكدا للإستفادة منه لأن

1- فتح الباري 10 : 221 .

2 - بطر الحق : تبديل الحق باطلا ، وقيل إنكار الحق مع شدد ظهور وقيل: الترفع عن الحق وعدم قبوله - لسان العرب 1 : 225 .

3 - غمص الناس : استصغارهم واحتقارهم .

4 - أخرجه الترمذ ي في كتاب البر والصلة : باب ماجاء في الكبر 8 : 164-165

5 - أخرجه النسائي في كتاب الزكاة : باب الإختيال في الصدقة 5 : 78 - 79 .

في إراءة العمل للناس دعوة إلى الإحتذاء و التقليد ، وهذا من باب التربية بالقدوة الحسنة التي هي أسلوب قوي فعال في التهذيب ، وتركيز الفضائل ، وغرس شتى العادات الصالحة والقيم الأخلاقية العالية بطريقة الإيحاء .

فمن منا لم يكن مدينا في كثير من سلوكه وتربيته وعاداته للعديد لمن كان يعاشرهم ويخالطهم ، ويجتمع بهم من أقارب ، ومعلمين ، وأساتذة ، أو حتى من قرأ سيرهم من عظماء الرجال .

فإظهار الأعمال على هذا النحو رياء مباح شرعا ، مرغب فيه، بينما يكون مذموما لو كان القصد منه الإساءة إلى الغير والإضرار بالمجتمع ومن هنا رأينا كيف تماثلت أساليب المرائين وتباينت من حيث المقاصد ، وكان منها الطيب المفيد والخبيث المقيت .

4 -التعظيم الذي ينشده المراءون قد يكون مباحا أو واجبا

تتكون أهداف المرائين بتكون البواعث النفسية المحركة لها ، والتي وقع بحثها واستقراؤها من طرف العلماء على ضوء الأصول الشرعية ، وتبين أنها ترجع إلى ثلاثة عوامل كما جاء ذلك من المحاسبي في قوله : " فالذي يبعث على الرياء حب المحمدة ، وخوف المذمة ، والضعة ، ثم الطمع الدنيوي ، وبما في أيدي الناس إلا أن حب المحمدة هو الأصل [1] .

وإلى هذا ذهب القرافي حيث قال : وأغراض الرياء ثلاثة :

---

1 - الرعاية لحقوق الله : 139.

التعظيم وجلب المصالح الدنيوية ودفع المضار الدنيوية والأخيران يتفرعان عن الأول ، فإنه إذا عظم إنجلبت إليه المصالح واندفعت عنه المفاسد ، فهو الغرض الكلي في الحقيقة [1] .

ولعل أحسن معرف بوسائل جلب المحمدة ، والتعظيم الحديث الشريف الذي فرق بين الأهداف السافلة والأهداف النبيلة والذي رواه أبو موسى الأشعري [2] رضي الله عنه وجاء فيه أن أعرابيا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الرجل يقاتل ليذكر ويقاتل ليحمد ويقاتل ليغنم ويقاتل ليرى مكانه ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله [3] ، والتعظيم الذي يسعى المراؤون إلى اكتسابه متعدد الألوان مختلف الأشكال تبعا للرغبات والميول .

فمن الناس من يكون غرضه الوصول إلى جمع الأموال والثراء الواسع ومنهم من يسعى إلى أن يكون عالي القدرة محترما ذائع الصيت تلهج الأفواه بالثناء عليه ويشار إليه بالبنان ومنهم من يروم الوصول إلى طلب السلطان أو أي منصب حكومي آخر ، أو يحاول التعرف على أولي الأمر ، والدنو منهم حتى يشتهر بينهم ويكون ذا جاه لديهم وبذلك ينال ما يرجوه من مطامع مستترة .

ومن الناس من يدخل في تنظيم اجتماعي أو سياسي ويتظاهر بالعمل للمصلحة العامة والتفاني في خدمة الوطن والتضحية في

---

1 – الفروق 3 : 22 .

2 – هو عبد الله بن قيس : 662/42 أسد الغابة 3 : 367 – 369 .

3 – أخرجه مسلم في كتاب الإمارة : باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا6 : 46

سبيل مكاسبه ، والحرص على ترقيته ولكنه يتخذ ذلك القناع وسيلة إلى خدمة منافعه الفردية ومطامحه الخاصة .

فإذا كان الرياء يتمثل في القيام بأعمال يختلف ظاهرها عن باطنها، فهو الكذب بنفسه وهذا ما نلاحظه في كثير من أنشطة الحياة المعاصرة على مستوى الأفراد والجماعات وحتى الأمم ، ويتجلى لنا هذا خاصة في حقل الحكم والسياسة وما يجري من حوار في نطاق الهيئات والمنظمات الدولية ، وما يلقى فيها من خطب رنانة تهتم بالقضايا الإنسانية كمحاربة الظلم والاستعباد والاستغلال... ويجتهد الخطيب في انتقاء الألفاظ المعسولة ، ويضفي عليها طلاء براقا من الحق والمنطق للمخادعة والمغالطة ، والغريب في الأمر أن هناك من يكون مدركا للحقيقة ، عارفا جهتها ولكنه لا يصدح بها لسبب من الأسباب .

ولعل ما يعانيه العالم اليوم من الويلات والفتن والبلاء والحروب يكون من بين أسبابه الرياء والنفاق الاجتماعي لكسب المنافع وصرف النظر عما يلحق الشعوب والمجتمعات من شرور ومصائب .

والذي يجب التنبيه إليه هنا هو أنه ليس كل ما يناله المرء من الجاه والمنزلة في قلوب الناس سببه الرياء والمخادعة ، فكثيرا ما يحصل مثل هذا بدون سعي إليه وجد في طلبه ويكون نتيجة عمل خالص صادق ، فهذا النوع من الجاه الحاصل تلقائيا مباح بشرط عدم الاغترار به والتحسر على زواله ، ولا أدل على ذلك من جاه الرسول الأكرم وجاه الخلفاء الراشدين وأئمة الإسلام الأعلام وعلمائه الأبرار [1] .

---

1 - الإحياء 10 : 1870 .

إن طلب هذا الجاه المؤسس على حب الخير للناس ، المركز على قصد إقامة العدل بينهم وتوفير مصالحهم قد يتأكد طلبه لمن تتوفر فيه الشروط اللازمة ، وفي الأوقات التي لا يوجد فيها غيره ولعل هذا الدافع النبيل هو الذي يظهر في قول الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام وهو يتوجه إلى ملك مصر قائلا : « اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم » [1] .

فقد استنبط العلماء عدة أحكام من هذه الآية تجعل طلب تقلد المناصب السامية وإيجاد منزلة في القلوب أمرا مباحا بل قد يكون واجبا في بعض الأحيان .

ذكر ابن العربي [2] أن طلب يوسف للإمارة مبعثه سعة العلم وقوة الحفظ ، ولكي يمكن الفقراء من حظوظهم وحقوقهم ورفع المظالم عنهم ، في فترة انعدم فيها العالم الكفء الذي يستطيع تحمل تلك المسؤولية الثقيلة ومن هنا صار طلب القيام بها من طرف يوسف فرضا ، وليس هذا من باب ما جاء في قول الله تعالى : « فلا تزكوا أنفسكم » [3] وانما وقع استثناؤه من هذا الحكم للأسباب المتقدمة.[4]

ومما قد يظن دخوله في إطار أهداف الرياء وليس منها ، رغبة

---

1 – يوسف : 55 .

2 – أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري الأندلس (1148/543) . الصلة 2 : 559/558 .

3 – النجم : 32 .

4 – أحكام القرآن 1 : 443 .

الإنسان في الشهرة ، وذلك ينشر علمه أملا في الإنتفاع به ، والإستفادة منه ، وقد أوضح القرافي هذا المعنى بقوله : " واعلم أنه ليس من الرياء فقط إشهار النفس بالعلم لطلب اقتداء بل هو أعظم القربات ، فإنه سعي في تكثير الطاعات وتقليل المخالفات . ولذلك قال ابراهيم عليه السلام :« واجعل لي لسان صدق في الآخرين »[1]..[2]

ففسره مجاهد بالثناء الحسن [3] ، فقال الإمام مالك [4] :

" وقع التنبيه في هذه الآية على استحباب اكتساب منزلة تدعو إلى الثناء على المرء ، وذكره باعماله الصالحة وانه لا باس من حبه لذلك، والتوق إلى عده من الصلحاء إذا كان القصد من العمل وجه الله تعالى .

وقد قال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : « وألقيت عليك محبة مني » [5] وقال جل ثناؤه : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » [6] أي حبا في قلوب عباده وثناء عليه [7] .

---

1 - الشعراء :84 .

2 - الذخيرة 1 : 46 .

3 - الجامع لأحكام القرآن 13 : 112 .

4 - هو الإمام مالك بن أنس الأصبحي: 795/179 الإنتقاء ابن عبد البر:9 - 47

5 - طه : 39 .

6 - مريم : 96 .

7 - الجامع لأحكام القرآن 13 : 112 - 113 .

فمن خلال هذا التقرير يتضح كيف اختلف العمل الواحد باختلاف الأهداف وعلى ضوء ذلك يتعين المصير وتتقرر المكافآة .

فطلب الجاه الذي يكون سببه الاهتمام بالدنيا ، وتحقيق أغراض سافلة بالاعتماد على المظاهر البراقة ومختلف وسائل الإعلام ممنوع شرعا ، وليس لقاصده إلا ما قد يتحصل عليه من ربح ضئيل، بينما طلب الجاه الرامي إلى تركيز الحق والعدل وإشاعة الفضائل ، والمثل العليا الإسلامية مأمور به شرعا ، ومحقق لصاحبه – في الآن نفسه – خيرات الدنيا والآخرة .

وفي هذا المعنى روي زيد بن ثابت رضي الله عنه [1] عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : " من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه ، ولم ياته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله عليه أمره وجعل غناه في قلبه ، واتته الدنيا وهي راغمة [2] .

---

1 – زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري 665/45 أسد الغابة 2 : 278 – 279

2 – أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد – باب الهم بالدنيا – 2 : 1375 .

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- أ -

الأبي " محمد بن خلفة الوشتاتي "
إكمال الأكمال المعلم - سبعة أجزاء - مصر 1328
إبن الأثير " أبو الحسن علي بن عمر الجزري "
أسد الغابة - سبعة أجزاء - مصر - كتاب الشعب
أحمد بن حنبل " أبو عبد الله أحمد بن محمد حنبل "
المسند - ستة أجزاء - مصر 1313

- ب -

الباجي " أبو الوليد سليمان بن خلف بن أيوب "
المنتقى - شرح الموطأ مالك - سبعة أجزاء - مصر 1332
البخاري " أبو عبد الله محمد بن إسماعيل "
الجامع الصحيح المسند - ثمانية أجزاء - دار الطباعة العامرة
إبن بشكوال " أبو القاسم خلف بن عبد الملك " الصلة
- جزآن - مصر 1955/1374

- ت -

التمردي " أبو عيسى بن محمد عيسى بن سورة "صحيح التمردي بشرح ابن العربي - ثلاثة عشر جزء - 1350
التنبكتي " أحمد بابا بن أحمد بن عمر " نيل الإبتهاج بتطريز الديباج - مطبوع بها من الديباج - مصر 1329 غاية الأمل في فضل النية على العمل - مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس برقم 15337 .

- ج -

الجوهري " إسماعيل بن حمادة " الصحاح - ستة أجزاء - مصر 1377

- ح -

ابن حجر " شهاب أحمد بن علي إبن حجر العسقلاني "
تهذيب التهديب -اثنا عشر جزءا - الهند 1327
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة - أربعة أجزاء - الهند 1349 فتح الباري بشرح صحيح البخاري - ثلاثة عشر جزءا - مصر 1300

- خ -

الخطيب البغدادي " أبو بكر أحمد بن علي "
تاريخ بغداد - أربعة عشر جزءا - مصر 1931/1340

- د -

الدار قطني " علي بن عمر الدارقطني "
سنن الدار قطني - أربعة أجزاء - مصر 1933/1386
أبو داود " سليمان بن الأشعث إسحاق السجستاني "
سنن أبي دود - جزآن - مصر 1952/1371

- ر -

ابن رجب " أبو الفرج عبد الرحمان بن رجب الحنبلي "
جامع العلوم الحكم - جزآن - مصر
الزرقاني " محمد بن عبد الباقي بن يوسف "
شرح الزرقاني على موطأ مالك بن أنس - أربعة أجزاء - لبنان 1978/1392

- س -

السبكي " أبو نصر بن عبد الوهاب بن عبد الكافي "
طبقات الشافعية الكبرى - ستة أجزاء - المطبعة الحسينية بمصر - الأولى -

- ع -

ابن عبد البر " أبو عمر يوسف بن عبد الله "
- الإستيعاب في معرفة الأصحاب - أربعة أجزاء - مطبعة نهضة مصر
- الإنتقاء في فضائل الأئمة الثلاث الفقهاء - مصر 1350

ابن العربي أبو بكر محمد بن عبد الله
أحكام القرآن - جزآن - مصر 1331

العيني " محمود بن أحمد العيني الحنفي "
عمدة القارئ في شرح صحيح البخاري - أحد عشر جزءا - دار الطباعة العامرة 1308 .

- غ -

الغزالي " أبو حامد محمد بن محمد "
إحياء علوم الدين - ستة عشر جزءا - كتاب الشعب
الأربعين في أصول الدين - لبنان - 1978

- ف -

ابن فرحون " برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد "
الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب - مصر 1329

- ق -

القرافي " أحمد بن إدريس "
الفروق - أربعة أجزاء - مصر 1344

الذخيرة – طبع الجزء الأول منها – مصر 1967/1381
القرطبي " أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري "
الجامع لأحكام القرآن – عشرون جزءا – مصر 1967/1387
– م –
إبن ماجه " أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني "
سنن ابن ماجه – جزءان – مصر 1952/1372
مالك بن أنس
الموطأ رواية يحي بن يحي الليثي – شرح وتعليق أحمد راتب عمروش لبنان 1971/1390
المحاسبي " أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي
الرعاية لحقوق الله – مطبع دار الكتاب العربي بمصر
المحبي " محمد أيمن بن فضل الله "
خلاصة الاثر في إعان القرن الحادي عشر – أربع أجزاء – الوهبية 1284
إبن منظور " محمد بن أكرم بن علي "
لسان العرب – ثلاثة أجزاء – دار العرب لبنان
– ن –
النسائي " أبو عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب "
سنن النسائي – ثمانية أجزاء – مطبعة الأزهر
أبو نعيم " أحمد بن عبد الله الأصتهاني "
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – عشر أجزاء – مصر 1351
– هـ –
ابن هشام " أبو محمد عبد الملك بن هشام "
السيرة النبوية – أربعة أجزاء – مصبعة حجازي بالقاهرة .